14 - السيدة أم حرام بنت ملحان

الأنصارية السابقة

اسمها أُمُّ حَرَام، والدها مِلْحان بن خالد، وزوجها الصحابي الجليل عُبَادَةُ بن الصامت، وأختها أُمُّ سُلَيْم بنت مِلْحان أُمُّ أنس بن مالك ﷺ.

كانت أُمُّ حَرَام من السابقين الأوائل إلى الإسلام، فقد أسلمت مبكرة، وبايعت رسول الله ﷺ مع نساء الأنصار حين بايعنه.

حضر زوجها عُبَادَةُ ﷺ العقبة الأولى ضمن اثني عشر رجلاً من الأنصار، فبايعوا رسول الله ﷺ، وعُبَادَةُ هو راوي حديث العقبة الأولى، في مسند الإمام أحمد: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ مَرْثَدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْيَزَنِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُسَيْلَةَ الصُّنَابِحِيِّ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ الْعَقَبَةَ الأُولَى، وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ الْحَرْبُ، عَلَى أَنْ لا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلا نَسْرِقَ، وَلا نَزْنِيَ، وَلا نَقْتُلَ أَوْلادَنَا، وَلا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ، **«فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمُ الْجَنَّةُ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَكُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَكُمْ»**[1].

ثم حضر عُبَادَةُ ﷺ العقبة الثانية، يوم خرج مصعب بن عمير سفير

(1) رواه: أحمد/كتاب: باقي مسند الأنصار/باب: حديث عبادة بن الصامت/برقم: (21692).

رسول الله ﷺ إلى المدينة بثلاثٍ وسبعين رجلاً وامرأتين من مؤمني الأنصار ليلتقوا برسول الله ﷺ في العقبة أواسط أيام التشريق.

ولما أرخى الليل سدوله كان وفد الأنصار في العقبة ينتظر وصول رسول الله ﷺ، فلما حضر كان يرافقه عمه العباس بن عبد المطلب الذي جاء ليستوثق لابن أخيه، ويتأكد من نصرة الأنصار له، وتأييدهم له إذا هاجر إليهم.

وطلب منهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا له من بينهم اثني عشر نقيباً، فاختاروا ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج، وكان عُبَادَةُ بين النقباء المختارين رضي الله عنهم.

وعاد وفد الأنصار بنقبائهم إلى المدينة سعداء مبتهجين بعد أن التقوا برسول الله ﷺ، واستمعوا إلى حديثه العذب الجميل، وحملوا توجيهاته إلى قومهم مع أجمل بشرى بقرب قدومه إلى المدينة مهاجراً حين يأذن له الله بالهجرة المباركة.

وما كان أسعد من أُمِّ حَرَامٍ حين استقبلت زوجها النقيب! وقعدت تستمع إلى حديثه، ولقائه الشيِّق برسول الله ﷺ، وما جرى في بيعة العقبة الثانية، واختيار النقباء، والأمانة التي حملوها لنشر دين الله وإعلاء كلمته.

ولم يلبث الأنصار أن سمعوا أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى مشارف المدينة، فخرج أهلها عن بُكرة أبيهم لاستقبال أعز الضيوف بالزغاريد العذبة والأهازيج الجميلة، وكان الأنصار يتنافسون فيما بينهم للإمساك بخطام ناقة رسول الله ﷺ حتى ينزل النبي ﷺ ضيفاً عليه، وابتسم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»! ولم تلبث القصواء أن توقَّفت أمام دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه.

العائلة المؤمنة

وكان عُبَادَةُ بن الصامت رضي الله عنه فارساً شجاعاً بيِّن الشجاعة، وقد حضر مع رسول الله ﷺ غزوة بدر وأبلى فيها أحسن البلاء، وسقطت يومئذٍ رؤوس

الكفر على أرض بدر صرعى، بعد أن آذوا رسول الله ﷺ وأتباعه من المسلمين إيذاء بليغاً.

كما حضر عُبَادَةُ أُحداً، وصمد مع الذين صمدوا أمام رسول الله ﷺ حين جعلوا أجسادهم تروساً حتى لا يصل إليه من المشركين مكروه.

وقد ثقلت عليه الهزيمة الأليمة التي نزلت بالمسلمين بسبب عصيان رماتهم آنئذٍ أوامر النبي ﷺ، وترك مواقعهم التي أمرهم ألاَّ يبرحوها مهما يكن سير القتال، سواء كان لمصلحة المسلمين أم ضدها، غير أنهم خرجوا من تلك المحنة المؤلمة بعظةٍ بالغةٍ مفادها: أن طاعة القائد أدعى إلى قطف النصر، ودحر الأعداء والخصوم.

وتجاوز المسلمون مأساتهم في أُحُد، وكان عُبَادَةُ لا يتخلف عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ إذا خرج، وحضور مجالسه إذا لم يكن هناك داعٍ للخروج.

وقد علمت أُمُّ حَرَام وزوجها عُبَادَةُ أن طلب العلم فريضة على كل مسلم - ذكرٍ أو أنثى - فأخذا ينهلان من كتاب الله، وحديث مصطفاه كلما وجدا إلى ذلك سبيلاً حتى تمكَّنا من بلوغ مرتبة الرواية لحديث رسول الله ﷺ، فقد روت أُمُّ حَرَام عن النبي ﷺ خمسة أحاديث اتَّفق الشيخان على واحدٍ منها، وروى عنها زوجها عُبَادَةُ ﷺ وابن أختها أُمُّ سُلَيْم أنس ﷺ، وعطاء بن يسار، وغيرهم.

وكانت أُمُّ حَرَام صوَّامة قوَّامة تالية لكتاب الله، ومن الذاكرات لله كثيراً، وقد ذكر ابن عبد البر أن أُمَّ حَرَام وأختها أُمَّ سُلَيْم خالتا رسول الله ﷺ من الرضاعة، وقال آخرون: إنهما خالَتاه لأبيه أو لجدِّه، لأن أم جده عبد المطلب كانت من بني النجار، ولهذا كان رسول الله ﷺ يتردَّد عليهما، ويقيل عندهما بين الحين والآخر.

بشرى النبي ﷺ لها

وقد أخرج الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه عَنْ

إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ وَكَانَتْ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَأَطْعَمَتْهُ وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ[1] هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ - أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ - عَلَى الأَسِرَّةِ»** قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: مَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ»** - كَمَا قَالَ فِي الأُولَى - قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ ﷺ: **«أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ»**، فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ[2].

وفي مرة أخرى أعاد رسول الله ﷺ تبشيرها بأنها ستكون في أول جيش يغزو البحر، روى البخاري في صحيحه عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ الأَسْوَدِ الْعَنْسِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّهُ أَتَى عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ وَهُوَ نَازِلٌ فِي سَاحَةِ حِمْصَ، وَهُوَ فِي بِنَاءٍ لَهُ وَمَعَهُ أُمُّ حَرَامٍ، قَالَ عُمَيْرٌ: فَحَدَّثَتْنَا أُمُّ حَرَامٍ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **«أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ الْبَحْرَ، قَدْ أَوْجَبُوا»** قَالَتْ أُمُّ حَرَامٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ: **«أَنْتِ فِيهِمْ»**، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ، مَغْفُورٌ لَهُمْ»** فَقُلْتُ: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«لا»**[3].

---

(1) الثبج: ثبج الشيء وسطه.

(2) رواه: البخاري/ كتاب: التعبير/ باب: الرؤيا بالنهار/ برقم: (6486).

(3) رواه: البخاري/ كتاب: الجهاد والسير/ باب: ما قيل في قتال الروم/ برقم: (2707).

وقد كان رسول الله ﷺ يخصُّ أُمَّ حَرَام باهتمامه وبركته فقد ورد أنه صلى في بيتها، روى حَمَّادٌ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى فِي بَيْتِ أُمِّ حَرَامٍ عَلَى بِسَاطٍ[1].

وذكر في مرة أخرى أنه صلى في بيتها في غير وقت صلاة ليكرمها، روى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِ أُمِّ حَرَامٍ فَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ وَأُمَّ حَرَامٍ خَلْفَنَا[2].

تفاعلهم مع المجتمع الإسلامي

وكانت أكبر صدمة تلقَّتها أُمُّ حَرَام وزوجها عُبَادَةُ ﷺ يوم انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولكنها مشيئة الله، وليس لجميع المؤمنين حيالها إلا الرضا والتسليم، فالموت كأس قضى الله على عباده جميعاً أن يشربوها، ولم يستثنِ منها حتى المقرَّبون.

لقد ثقل المصاب على جميع المسلمين، وغدا الحليم حيراناً، حتى إن عمر بن الخطاب فقد صوابه يومئذٍ، فخرج إلى الناس والسيف في يده، وراح يهدِّدهم، ويتوعَّد بالقتل كل من قال: إن رسول الله ﷺ قد قضى نحبه، ثم ما لبث أن سمع أبا بكر ﷺ يقول: أيها المسلمون! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144].

ووقف عمر ﷺ مذهولاً، كأن هذه الآية لم تطرق سمعه من قبل، ثم هدأت نفسه، وعاد إلى صوابه، وذكر أن البقاء لله الواحد القهَّار، وأن كل مخلوقٍ فانٍ.

---

(1) رواه: أحمد/ كتاب: باقي مسند المكثرين/ باب: مسند أنس بن مالك/ برقم: (12248).

(2) رواه: أحمد/ كتاب: باقي مسند المكثرين/ باب: باقي المسند السابق/ برقم: (12644).

إن أُمَّ حَرَامٍ وزوجها عُبَادَةُ بن الصامت يعلمان أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ من الدنيا ومتاعها وأضعاف ذلك، ولكن حزنهما كان لأجل انقطاع زياراته لهما، وافتقاد الخير الذي كان يصيبانه من جرَّاء زياراته لهما، والحديث العذب الذي كان يشنِّف به آذانهما.

ولكن أليس فيما ترك لهما وللمسلمين من القرآن الكريم والسنة المطهَّرة عزاء؟.

وبايع الزوجان المؤمنان أبا بكر الصِّدِّيق ﷺ، ووجدا أن سيرته لم تَحِدْ عن سيرة النبي ﷺ بشيءٍ، ولما خرج عليه المرتدون جيَّش لهم الجيوش حتى قضى عليهم، واستأصل شأفتهم، وشعر الزوجان بوفاء الصِّدِّيق، وحفاظه على عهده الذي عاهد عليه الله ورسوله ﷺ، فقرّا عيناً، ونعما بالاً، وكان لا بدَّ لنفس كلٍّ منهما أن تطيب!.

رجل بألف

وخلف الصِّدِّيقَ ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فكان عهده عهد الفتوحات الإسلامية الكبرى التي عمَّت فيها كلمة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» جميع البقاع، وتردَّدت في كل الأصقاع، وهوت عروش القياصرة، وزالت ممالك الأكاسرة، وأرسل عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل عليهم عمرو بن العاص ﷺ لفتح مصر، وإخراج الروم منها، ولما بلغها عمرو ﷺ وجد أنه بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الجنود، فكتب إلى الخليفة عمر يلتمس المدد.

وردَّ عمر على عمرو يقول: لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة كلٌّ منهم بألف رجل، ولكن من كان هؤلاء الأربعة؟ إنهم: الزبير بن العوَّام، وعُبَادَةُ بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد، ومن أعرف من عمر بالرجال؟ ودخلت مصر حظيرة الإسلام، وأصبحت أروع درة في تاجه.

تحقق البشرى

وبعث معاوية بن أبي سفيان ﷺ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يستأذنه في الخروج بالمسلمين وركوب البحر، فلم يأذن له، فلما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ أرسل معاوية يجدِّد طلب الإذن، فمنحه الإذن شريطة ألاَّ يُجْبِرَ أحداً على اقتحام البحر، وأن يكون الخروج اختيارياً لا إكراه فيه.

وأعدَّ معاوية ﷺ أُسطولاً بحرياً لغزو جزيرة قبرص، وملأ السفن بالمؤمنين البواسل، وعلى ظهر إحداها عُبَادَةُ بن الصامت وزوجه أُمُّ حَرَامٍ ﷺ.

وراحت أُمُّ حَرَام تستعيد شريط ذكرياتها عن مجالس رسول الله ﷺ، ووقفت عند حلمه الذي أخبرها فيه أنها من الأولين من أمته الذين يركبون البحر مثل الملوك على الأسرّة، فتساءلت: هل أتت اللحظة التي أُنبئت بها؟، وأخذت تتأمل كل ما تقع عليه عيناها فعل المودِّع.

وألقت السفن مراسيها على شواطئ قبرص، ونزل الفرسان، ثم نزلت أُمُّ حَرَام والنسوة اللاتي كنَّ بصحبتها، وحدَّثتهم بحلم رسول الله ﷺ، وهي لا تكفُّ عن الصلاة والسلام عليه.

وحين تعبت أُمُّ حَرَام من المسير جاؤوها ببغلةٍ، واعتلت أُمُّ حَرَام صخرةً لتتمكَّن من أن تمتطي ظهر البغلة، ولما همَّت بركوبها رمحتها[1] البغلة، فسقطت أُمُّ حَرَام، واندقَّ عنقها، ولما وصل عُبَادَةُ إليها كانت تردِّد قول رسول الله ﷺ: «أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ»، وتحقَّق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: 34].

---

(1) رمحتها: رفستها.

فكم قطعت أُمُّ حَرَام من المدينة إلى قبرص لتجود بأنفاسها على أرضها؟، قال هشام بن الغَاز: «قبر أُمِّ حَرَام بنت ملحان بقبرص، وهم يقولون: هذا قبر المرأة الصالحة» رحم الله تَعالى أُمَّ حَرَامٍ شهيدة البحر، وجعل الجنة مستقرها، ورضي عنها.

obeikandl.com